وقول الحق : « وماذا عليهم » إنه تساؤل عن أى ضرر كان يلحقهم«لو أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله » إن من يعطى الصدقة ويضعها فى يد الله يستثمرها عند المعطى ، لكن عندما يقوم بذلك رئاء الناس فهو يثمر عند من لا يعطى ، وبذلك يكونون قد خسروا أموالهم وخسروا تثمير الأموال فى يد الله بالثواب فى الآخرة .

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما » . وعلم الله متغلغل وسبحانه يعلم الخفايا . وسبحانه محيط بكل شىء علما ؛ لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

والظلم : الأصل فيه محبة الانتفاع بجهد غيره ، فعندما تظلم واحداً فهذا يعنى أنك تأخذ حقه ، وحقه ما جاء به بجهده وعرقه ، وتأخذه أنت بدون جهد ولا عرق . ويتبع هذا أن يكون الظالم قوياً . لكن ماذا عن الذى يظلم إنساناً لحساب إنسان آخر ؟ إنه لم ينتفع بظلمه ولكن غيره هو الذى انتفع . وهذا شرّ من الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بادروا بالأعمال ستكون فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا)[1] .

لأنه ظلم إنساناً لنفع عبد آخر ولم يأخذ هو شيئاً لنفسه .

إذن فالظلم إما أن يكون الانتفاع بثمرة جهد غيرك من غير كد ، وإما أن تنفع شخصا بجهد غيره ، والله سبحانه وتعالى إذا نظرنا إليه ـ وهو قوة القوى ـ إذا أراد أن يظلم ـ وحاشا لله أن يظلم ـ فماذا يكون شكل ظلمه ؟ إن الظلم يتناسب مع قوة

(١) رواه مسلم ، والترمذى ، وأحمد .

الظالم ، إذن فقوة القوى عندما تظلم فظلمها لا يُطاق ، ثم لماذا يظلم ؟ وماذا يريد أن يأخذ وهو من وهب ؟ إنه سبحانه مستغنٍ ، ولن يأخذ من هذا ليعطى ذاك ، فكلهم بالنسبة له سواء ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ، كلهم متساوون ، فلماذا يظلم ؟

إن الظلم بالنسبة لله محال عقلياً ومحال منطقياً ، فلا يمكن لله أن يضيع عمل حسنة ولا أن يضاعف سيئة . فهذه لا تتأتى ، وتلك لا تتأتى ، والله واهب كل النعم للناس جميعاً . ومادام هو من وهب كل النعم ، فسبحانه غير منتفع بآثاره فى خلقه . إن الحق سبحانه وتعالى ينفى عن نفسه الظلم فى قوله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

فكلمة « ظلّام » مثل قولنا : فلان « أكّال » وفلان « نوّام » . وهى تختلف عن قولنا : فلان نائم، يعنى نام مرة، ولكن «نوام» فهذا يعنى مداومته على النوم كثيراً، أى أنه إما أن يكون مبالغاً فى الحدث ، وإما أن يكون مكرراً للحدث ، فالمبالغة ـ كما نعرف ـ تأتى مرة لأن الحدث واحد لكنه قوى ، ومرة يكون الحدث عادياً لكنه مكرر ، هذه هى المبالغة ، فقوله سبحانه وتعالى : « وما ربك بظلّام » نفى للمبالغة ، وهذا لا يقتضى نفى غير المبالغة . ونقول : الله لو ظلم لكان ظلمه مناسبا قدرته فيكون كبيراً كثيراً ، ولو كان ظالما لشمل ظلمه وعمّ الخلق جميعا فيكون كذلك كبيراً كثيراً ولكن الله ـ سبحانه ـ يقول : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » . وسبحانه يحسب السيئة سيئة واحدة . أما الحسنة فيضاعفها ، « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » « مثقال » : يعنى ثقل ووزن ، والثقل هو : مقدار جاذبية الأرض للشىء . فعندما يكون وزن الشىء قليلاً وتلقيه من أعلى ، فهو ينزل ببطء ، أما الشىء الثقيل فعندما تلقيه من أعلى فهو ينزل بسرعة ؛ لأن قوة الجاذبية له تكون أقوى ، والإنسان منا حين ينظر إلى كلمة « مثقال » ؛ ويعبر عنها بأنها وزن ، فمعيار الميزان هنا « الذرة » . وما « الذرة » ؟

قال العلماء فيها : هى رأس النملة الصغيرة التى لا تكاد تُرى بالعين المجردة ، أو النملة نفسها . هذه مقولة ، أو الذرة كما قال ابن عباس حين سُئل عنها : أخذ شيئاً

من تراب الأرض ثم نفخه ، فلما نفخ تطاير التراب فى الهواء ، فقال لهم : كل واحدة من هذه اسمها « ذرة » وهو ما نسميه « الهباء » ، ونحن الآن الموجودين فى مكان واحد لا نرى شيئاً فى الجو ، لكن انظر إلى حزمة ضوئية ـ أى ثقب تدخل منه أشعة الشمس ـ فساعة ترى ثقباً يُدخل أشعة الشمس ترى غباراً كثيراً يسبح . والمهم أنك لا تراه جارياً إلا فى شعاع الشمس فقط ، فهو كان موجوداً ونستنشقه ، فما الذى جعلنى لا أراه ؟. لأنه بلغ من الصغر واللطف مبلغاً فوق طوق العين أن تراه ، فالذرة واحدة من هذا الغبار ،واسمه « الهباء » وواحدة الهباء هى الذرة .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن كل شىء موزون إلى أقل درجات الوزن وهو الذرة ، وهى الهباء ، ونحن لا نراها إلا فى نور محجوز ، لأننا فى النور القوى لا نرى تلك الذرات ، بل نراها فقط فى نور له مصدر واحد ونافذ ، والحق سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة ، وهذا تمثيل فقط ؛ لأن الذرة يمكن أن تكبر ، فالذى يكبر يمكن أن يصغر ، وقال الحق ذلك ولم يكن عند الإنسان المقياس الذى يُفتّت به الذرة ، وقد حدث أن استطاع الإنسان ذلك ، فبعد الحرب العالمية الأولى صنعت ألمانيا اسطوانات تحطيم الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ كما كان يصفه الفلاسفة قديماً ، ومعنى جزء لا يتجزأ أى لا يمكن أن يأتى أقل منه . ولم يلتفتوا إلى أن أى شىء له مادة إن كان يقبل التكبير فهو أيضاً يقبل التصغير . والمهم أن توجد عند الإنسان الآلة التى تدرك الصغر .

ومثال ذلك عندما صعدت الأقمار الصناعية وأخذوا من الجو صورة لمدينة نيويورك ؛ خرجت الصورة صغيرة لمدينة نيويورك . بعد ذلك كبروا الصورة ؛ فأخرجوا أرقام السيارات التى كانت تسير ! . كيف حدث هذا ؟ لقد كانت الصورة الصغيرة تحتوى تفاصيل أكثر دقة لا تراها العين المجردة ، وعندما يتم تكبيرها يتضح كل شىء حتى أرقام السيارات وضحت بعد أن كانت غير ظاهرة ، وإن كنت موجوداً فى نيويورك فى هذه الساعة أكنت تظهر بها ؟ لا يمكن أن تظهر . . لماذا ؟ . . لأنّ صورتك صغرت إلى الحد والقدر الذى لا يمكنك أن تراها وهى بهذا الحجم وهكذا ، فالنور عندما يكون محزوماً ، فالحزمة الضوئية التى تدخل إلى مكان ما ، لها من القوة التى تظهر ذرة الهباء الذى لم تكن تراها .

إذن فنور من الله مخلوق ظهرت فيه الذرة ، أيخفى على نور الخالق ذرة ؟ لا يمكن أن تخفى عليه سبحانه ذرة ؛ لأن النور الذى خلقه أظهر الذرة والهباء الذى كان موجوداً ولا نراه ، فلن يخفى على نور النور ذرة فى الأرض .

وهكذا نعرف أن المسألة بالنسبة لله عملية قطعية ، وعندما اخترعوا اسطوانة تحطيم الجوهر الفرد كانت مثل عصارة القصب ، ونحن نعرف أن عود القصب يوضع بين عمودين من الحديد . والعمود الواحد اسمه « اسطوانة » وعندما يضيقون الاسطوانتين ثم يمررون عود القصب بينهما ، فلا بد أن تكون المسافة بينهما ضيقة حتى إذا نفذ عود القصب يُعصر ، إذن فكلما ضيقت بين الاسطوانتين يزداد العصر ، ومادامت الاسطوانتان تجرى كل واحدة منها على الأخرى فهنا فراغ ضئيل جداً ، وحاول العلماء الألمان تضييق الاسطوانتين تضييقاً يفتت لنا هذه الذرة ، ونجحوا ، وأصبح هناك شىء آخر أقل من الذرة .

وظن السطحيون الذين يتربصون بالإسلام وبكتاب الله الدوائر ، ويريدون أن يجدوا فيه منفذاً . قالوا : إن الله قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . على أنها أقل شىء وظهر أن هناك أقل من مثقال ذرة ؛ لأن الذرة تحطمت . وقلنا لهؤلاء : أنتم أخذتم آية ونسيتم آيات ، فالقرآن قد جاء معجزة ليواجه مجتمعات شتى من لدن رسول الله إلى أن تقوم الساعة ، فلا بد أن يكون فيه ما يشبع العقول من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة . ولو أن عطاء القرآن صُب مرة واحدة فى عصر الرسالة لجاءت القرون التالية وليس للقرآن عطاء . فأراد ربنا أن يكون القرآن هو المعجزة والمنهج المتضمن للأحكام والكليات ، وهذه أمور مفهومة بالنسبة لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة . لكن لا يزال هناك كونيات ونواميس للحق فى الوجود لم تظهر بعد ، فسبحانه يعطى كل عصر على قدر اتساع فهمه .

وعندما نعرف أسرار قضية كونية لا يزيد علينا حكم ، فعندما نعرف قضية مثلاً كقضية الذرة وتفتيتها ووجود إشارات لها فى القرآن الكريم لا يزيد ذلك علينا أى حكم . بل ظلت الأحكام كما هى . فالأحكام واضحة كل الوضوح ؛ لأن من

يفعلها يثاب ، ومن لا يفعلها يعاقب . والناس الذين سيقوم عليهم الساعة مثل الناس الذين عاصروا حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ لذلك لابد أن تكون الأحكام واحدة ، فمن ناحية أن القرآن كتاب أحكام فهذا أمر واضح وضوحاً لا زيادة فيه ، ولم يفهم المعاصر لرسول الله حكماً ثم جاء الإنسان فى زماننا ليفهم حكماً آخر ، بل كل الأحكام سواء .

والقرآن كمعجزة هو أيضاً معجزة للجميع . ولابد أن تكون هناك معجزة لكل جيل . ولكل عصر ، ويأتى الإعجاز فى الآيات الكونية التى لو لم نعرفها فلن يحدث شىء بالنسبة للأحكام . مثال ذلك : لو لم نعرف أن الأرض تدور أكان انتفاعنا بالأرض يقل ؟ لا . . فنحن ننتفع بالأرض سواء أعلمنا كرويتها أم لم نعلم ، لكن الحق سبحانه وتعالى يواجه العقول بما يمكن أن تطيقه . فإذا ما ارتقت العقول وتنورت واستنارت بمقتضى طموحاتها العلمية فى الكون . فالقرآن إن لم يؤيدها فهو لا يعارضها .

وعندما فتتوا الذرة قال المشككون : إن ربنا يضرب بالذرة المثل لأصغر شىء « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » لكن هناك ما هو أقل من الذرة . ونرد عليهم : أنتم نظرتم إلى آية ونسيتم آيات . أنتم لم تنتبهوا ـ كما قلنا ـ إلى أن من فتتوا الذرة إلى إلكترونات وأيونات وموجب وسالب حاولوا بعد ذلك أن يفتتوا ما فُتت . والآية التى نحن بصددها الآن : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » أرضت العقول التى تعرف الذرة الأصلية هذه واحدة ، ولماذا لا نسمع قول الله :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة يونس)

إذن فهناك ذرة وهناك أصغر من الذرة ، ولم تأخذوا فى بالكم أن « أصغر » هذه أفعل تفضيل ، ولا يوجد أصغر إلا إن وجد صغير ، إذن فهناك ذرة ، وهناك صغير

عن الذرة ، وهناك أصغر من الصغير ، فهناك إذن ثلاث مراحل ، فإن فتتوها فلنا رصيد فى القرآن يقول بالصغر ، فإن فتتم المفتت ، فلنا رصيد فى القرآن بأصغر ؛ ، لأن كل أصغر لا بد أن يسبقه صغير ، وإن كنت ستفتت المفتت فما زال عندنا رصيد من القرآن يسبق عقولكم فى الابتكار ، فإن قلت تفتيت جاز ، وإن قلت تجميع جاز ؛ لأنها أصغر وأكبر ، تفتيت أو تجميع ، والمعقول أنك تقول : لا يغيب الأصغر والصغير ، والذرة كذلك لا تغيب فكيف يعبر عن الأكبر بأنه لا يغيب مع أنه ظاهر وواضح ؟.

ونقول لك : إن المتكلم هو ربنا ، فالشيء لا يدرك إما لأنه لطيف فى غاية الدقة بحيث لا تتعلق به الباصرة فلا يُرى ، وأيضاً لا يُدرك لأنه كبير بصورة أكبر من أن تحيط به الباصرة ، فحين ترى جبلاً كبيراً على بعد اثنين من الكيلو مترات أو ثلاثة فأنت لا تدركه ؛ لأنه أكبر من أن يحيط به إشعاع بصرك ، ولكن الأمر بالنسبة لله يختلف فلا يوجد صغير يَدِقُّ لا يراه ، ولا كبير يكبر لا يراه ، إذن فلا بد أن تأتى « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » . وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ ﴾

(سورة سبأ)

وانظروا إلى دقة الحق فى الرد على الإنكار للساعة وهى قضية كونية تنسحب على كل العصور .. فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾

(سورة سبأ)

كان يكفى أن يقول : إن الساعة آتية ، لكنه أوضح : اعرفوا أن الساعة آتية ، وكل ما فعلتموه معروف ، ولماذا يقولون : لا تأتى الساعة ؟ إن هذا لون من تكذيب النفس لأنهم لم يعملوا على مقتضى ما يتطلبه قيام الساعة ، فالذى لم يعمل لذلك يود

لأن من مصلحته ذلك - أن تكون مسألة الساعة كذب ؛ لأنه قد عمل أشياء يخاف أن يحاسب عليها ، فجاء سبحانه بالآية لكى تردّ على المقولة وعلى الدافع للمقولة . وكل مقولة لها دافع . لقد كان الدافع لمقولتهم هو إسرافهم على أنفسهم فلم يقدموا عملاً صالحاً فمن مصلحتهم الآمالية ألا تأتى الساعة ، كى لا يعاقبوا ، وسبحانه يعلم أزلا ما فعلوا وردّ على المقولة وردّ على الدافع الذهنى للمقولة ، فأوضح سبحانه : أنا عالم كل أمر ولن يغيب عنى عمل من أعمالكم .

وقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وإن تك حسنة » يعنى : وإن يكن الوزن لحسنة يضاعفها الله ، وعندما يحدثنا سبحانه عن الحسنة وأنها تضاعف ثم لا يتكلم عن السيئة فهذا يدل على أن السيئة بمثلها ، والحق قد تكلم عن المضاعفة للحسنة فى كثير من الآيات « والله يضاعف لمن يشاء » .

وفى آية أخرى يقول الحق :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

وبعد ذلك يقول :

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ففيه فرق بين نظام حساب الحسنات ونظام حساب السيئات ، فالحسنة تضاعف لعشر أمثالها لسبعمائة ضعف ، هذا هو نظام الحساب ، وإرادة خالق هذا النظام تعطى كما تريد ، إذا كنا نحن - كبشر - عندما نوظف واحداً نقول : أنت تدخل السلم الوظيفى ، وتبدأ السلم الوظيفى من أول درجاته ثم تترقى درجة بعد درجة ، ثم يأتى رئيس الدولة ليعينك فى درجة أعلى من ذلك بكثير ، فما بالنا بحساب الرب الأعلى ؟ إنه يعطى بعملية حسابية فيها زيادة فضل ؛ ولذلك قال بعد هذه الآية : « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » أى إنه سبحانه يعطى من عنده ذلك الأجر العظيم ، وهذا اسمه « محض الفضل » وكيف يسميه الله أجراً مع

أنه زائد ؟ لأن هذا الفضل جاء تابعا للأجر ، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق أجراً ، وبالتالى فلا ينال فضلا وحين يضرب الله الأمثال للناس فذلك لتقريب المعانى ؛ لأن الله قاله والله صادق فيما يقول ، فيعطى الحق سبحانه وتعالى مُثلاً إيناسية فى الكون ، حتى لا تستبعد أن الحسنة تذهب لهذه الأضعاف المضاعفة . فيوضح لك : هذه الأرض أمامك هات حبة واحدة وضعها فى الأرض تخرج لك سبع سنابل وكل سنبلة فيها مائة حبة فإذا كانت الأرض ـ وهى مخلوقة لله ـ أعطت سبعمائة ضعف ، فكم يعطى من خلق الأرض ؟ إنه يعطى بغير حساب .

إذن فكلمة « من لدنه » هذه تعطيك الباب الواسع الذى يتناسب مع الله . فالأرض تعطيك على قدر جهدها ، وعلى قدر العناصر الغذائية الموجودة فيها . . والذى عنده وبيده الخير وخلق كل الكون يوضح : إذا كان خلق من خلقى يعطى حتى الكافر ، سبعمائة ضعف فالذى خلق هذا يعطى للمؤمن أجراً للحسنة بلا حدود ؛ ولذلك فالإيناسات التمثيلية فى الكون يتركها الله لتقرب للعقل المعنى البعيد الذى قد يقف فيه. فالإنسان منا مادة: هى البدن وتحل فيه الروح. وعندما تسحب الروح من البدن ، ماذا يصير؟ يصير الجسد رمة ، ويتحلل لعوامله الأولى وتنتهى منه مظاهر الحياة .

إذن فالروح هى السبب فى الحركة ، وفى أن كل جهاز يقوم بعمله ، وفى النمو ، وعندما تسحب الروح ينتهى الأمر ، إن الروح هى التى تدير كل هذا الجسم ، والروح لا لون لها ، ولا أحد يراها ، ولا يشمها كائن ، فكيف ندركها إذن ؟

نقول : إن الجوهر الذى يدخل فى جسدك ويعطيه الحركة فيديره . أنت لا تراه ولا تحسّه ، وهو غيب بالنسبة لك ، فإذا حُدّثت أن ربك غيب فلا تتعجب ، فروحك التى بين جنبيك لا تعرف كُنهها ، وعليك إذن أن تصدق عندما يقال لك : ربك ليس بمحدود بمكان وعندما يقول سبحانه :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَـٰرُ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

فكلنا نقول : نعم هذا كلام صحيح ؛ لأنه إذا كان هناك مخلوق لله وهو الروح لم

تدركه الأبصار ، أفتريد أن يُدرَك من خَلَقَ ؟ لا يمكن.وهو سبحانه من عظمته أنه لا يُدرَك .

وسبحانه يقول : « ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » ونقف عند كلمة « من لدنه » . ونعرف أن فيه فرقا بين الإتيان بالناموس ـ وهو النظام الموضوع ـ والعطاء المباشر ، وعندما يقول الحق : « من لدنه » فهذا يعنى أن الوسائط تمتنع . ونعلم قصة سيدنا موسى عندما ذهب ليقابل العبد الصالح قال تعالى فى وصف العبد الصالح :

﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الكهف)

وهذا يعنى أن العبد الصالح قد تعلم ليس بوساطة أحد . بل من الله مباشرة ، بدليل أن الذى جاء ليتعلم منه وتعلم منه ثم وقف معه فى أمور جاءت على خلاف ما تجرى به النواميس والعادات.فكلمة « من لدنا » تعنى تجاوز الحجب ، والوسائط ، والأنظمة .

والحق سبحانه يحترم أصل عملك ويسمى عطاءه لك « أجراً » ، لأنه أعطى من لدنه بعدما أعطى له النصيب المقدر كأجر ، وهذا الأجر موصوف بأنه عظيم؛لأنه مناسب للمعطى .

ثم يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة « كيف » فاعرف أن هناك شيئا عجيبا ، تقول مثلاً : أنت سببت السلطان فكيف إذا واجهوك ووجدته أمامك ماذا تفعل ؟ كأن مواجهة

السلطان ذاتها مسألة فوق التصور . . فكل شيء يتعجب منه يؤتى فيه بـ « كيف » ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

وهذا يعني تعجبيا من مصيبة وكارثة هي الكفر بالله ، فقولوا لنا : كيف جاءت هذه ؟ إنها مسألة عجيبة ، ونقول : فكيف يكون حال هؤلاء الكافرين ، كيف يكون حال هؤلاء العُصاة ، في يوم العرض ا لأخير ، « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » و « الشهيد » هو : الذي يشهد ليقرر حقيقة ، ونحن نعلم أن الحق أخبرنا :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

وهذا النذير شهيد على تلك الأمة أنه بلغها المنهج ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم شهيد على أمته أنه بلغ ، فقوله : « وجئنا بك على هؤلاء » من هم ؟ ننظر قوله : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » وهو رسولها الذي بلغ عن الله منهجه ، وكيف يكون الموقف إذا جاء وقال : أنا أبلغتهم الموقف ولا عذر لهم لأنني أعلمتهم به ، « وجئنا بك » يا محمد ـ صلى الله عليك وسلم « على هؤلاء » فهل المعنى بـ « هؤلاء » هم الشهداء الذين هم الرسل أو على هؤلاء المكذبين لك ؟ وتكون أيضاً شهيداً على هؤلاء مثلما أنت شهيد على أمتك ؟ إن كلا من الحالين يصح ، لماذا ؟ .

لأن الله جاء بكتابه المعجزة وفيه ما يثبت أن الرسل قد بلغوا أممهم ، فكأن الرسول حين سُجل في كتابه المعجزة وكتابه المنهج أن الرسل قد بلغوا أممهم فهو سيشهد أيضاً : هم بلغوكم بدليل أن ربنا قال لي في كتاب المعجزة وفي المنهج . ويكون رسولنا شهيداً على هؤلاء المكذبين الذين أرسل إليهم وهم أمة الدعوة. فالمعنى هذا يصلح ، وكذلك يصلح المعنى الآخر . ولا يوجد معنى صحيح يطرد معنى صحيحا في كتاب الله ، وهذه هي عظمة القرآن . إن عظمة القرآن هي في أنه يعطي إشعاعات كثيرة مثل فص الماس ، فالماس غالٍ ونفيس ؛ لأنه قاسٍ ويُكسر به وكل ذرة فيه لها شعاع ، المعادن الأخرى لها إشعاع واحد ، لكن كل ذرة في الماس لها إشعاع ؛ ولذلك يقولون إنه يضوي ويتلألأ ، فكل ذراته تعطي إشعاعاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : أن حال هؤلاء سيكون فظيعاً حينما يأتى يوم العرض يوم القيامة ، ويقولون : إننا بلغناكم ، أو الحق سبحانه وتعالى عرض هذه المسألة بالنسبة للرسل وأممهم ، وبالنسبة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته أو للأمم كلها ، فنحن أيضاً سنكون شهداء :

﴿ لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

وهذه ميزة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأن أمة محمد هى الأمة الوحيدة التى أمنها الله على أن يحملوا المنهج إلى أن تقوم الساعة ، فلن يأتى أنبياء أبداً بعد رسول الله ، فيقول : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » إذن فنحن بنص هذه الآية أخذنا امتداد الرسالة .

عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اقرأ علىّ القرآن فقلت يارسول الله : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ .

قال : نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فقال: حسبك ، فإذا عيناه تذرفان الدموع »[1] .

فإذا كان الشهيد بكى من وقع الآية فكيف يكون حال المشهود عليه ؟ الشهيد الذى سيشهد بكى من الآية ، نعم؛لأنك تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ملء قلبه رحمة بأمته ، ولذلك قلنا:إن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته جعل ربه يعرض عليه أن يتولى أمر أمته ، بعد أن علم سبحانه مدى عنايته صلى الله عليه وسلم بهذه الأمة :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .

فأمر أمته صلى الله عليه وسلم كان يقلقه جداً على الرغم من أن الحق سبحانه قد أوضح له : أنت عليك البلاغ وليس عليك أن تهدى بالفعل ، وهو صلى الله عليه وسلم يعرف هذا . إنما حرصه ورحمته بأمته جعله يحب أن يؤمنوا ، وعليه الصلاة والسلام خاف على أمته من موقف يشهد فيه عليهم ضمن من سيشهد عليهم يوم الحشر . فلما رأى الحق سبحانه وتعالى أن رسوله مشغول بأمر أمته قال له : لو شئت جعلت أمر أمتك إليك .

وانظر إلى العظمة المحمدية والفهم عن الله ، والفطنة ، فقال له : لا يارب . أنت أرحم بهم منى .

وكأنه صلى الله عليه وسلم يقول للخالق : « أتنقل مسألتهم فى يدى وأنا أخوهم ، إنما أنت ربى وربهم ، فهل أكون أنا أرحم بهم منك ؟ لقد كان من المتصور أن يقول رسول الله : نعم أعطنى أمر أمتى لكنه صلى الله عليه وسلم قال : يارب أنت أرحم بهم منى . فكيف يكون ردّ الرب عليه ؟ . قال سبحانه : فلا أخزيك فيهم أبداً ، وسبحانه يعلم رحمة سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم بأمته .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى . . » وقول عيسى عليه السلام : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : « اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك »؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »[1] .

« فكيف إذا جئنا » أى كيف يكون حال هؤلاء العصاة المكذبين . . « إذا جئنا من كل أمة بشهيد » أنه أدّى وبلغ عن الله مراده من خلقه . « وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ؟

(١) رواه مسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾

وساعة ترى « يومئذ » وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عوض عن شيء محذوف والمحذوف هنا أكثر من جملة ويصبح المعنى : يوم إذْ نجيء من كل أمة بشهيد وتكون أنت عليهم شهيداً ، فى هذا اليوم « يودّ الذين كفروا وعصو الرسول » لأنهم فوجئوا بعملية كانوا يكذبونها ، فلم يكونوا معتقدين أن الحكاية جادة ، كانوا يحسبون أن كلام الرسول مجرد كلام ينتهى ، فعندما يفاجئهم يوم القيامة ماذا يكون موقفهم ؟ « يودّ الذين كفروا وعَصَوْا الرسول لو تُسوّى بهم الأرض » وما معنى « تُسوّى بهم الأرض » ؟ كما تقول : سأسوِّى بفلان الأرض ؛ أى تدوسه دوسة بحيث يكون فى مستوى الأرض .

« ولا يكتمون الله حديثا » . فكيف لا يكتمون الله حديثا ؟ وهو قد قال فى آية أخرى :

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

قال الحق ذلك عنهم لأن الأمر له مراحل : فمرة يتكلمون ، ويكذبون ، فهم يكذبون عندما يقولون :

﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

وسيقولون عن الأصنام التى عبدوها :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

إذن فقوله : « ولا يكتمون الله حديثا » دليل على أن الحديث مندفع ولا يقدر صاحبه أن يكتمه . فالكتم : أن تعوق شيئاً يخرج بطبيعته من شيء آخر فتكتمه . والواحد منهم فى الآخرة : لا يقدر أن يكتم حديثاً ؛ لأن ذاتية النطق ليست فى أداة النطق كما كان الأمر فى الدنيا فقط ، بل سيجدون أنفسهم وقد قدموا إقرارات بخطاياهم ، وبألسنتهم وبجوارحهم ؛ لأن النطق ليس باللسان فقط ، فاللسان سيشهد ، والجلود تشهد ، واليدان تشهدان ، بل كل الجوارح تشهد .

إذن فالمسألة ليست تحت سيطرة أحد ، لماذا ؟ ؛ لأن هناك ما نسميه « ولاية الاقتدار » ، ومعناها أن : هناك قادراً ، وهناك مقدور عليه . ولكى نقرب الصورة ، عندما توجد كتيبة من الجيش وعليها قائد . وبعد ذلك قامت الكتيبة فى مهمة ، والقانون العام فى هذه المهمة : أن يجعل لهذا القائد قادرية الأوامر وعلى الجنود طاعته ؛ وألا يخالفوا الأوامر العسكرية ، فإذا أصدر هذا القائد أمراً تسبب فى فشل معركة ما ، وذهب الجنود للقائد الأعلى منه ، ويسمونه الضابط الأعلى من الضابط الصغير ، فيكون للجنود معه كلام آخر ، إنهم يقدرون أن يقولوا : هو الذى قال لنا ونفذنا أوامره .

أقول ذلك لتقريب المعنى لحظة الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى . فحينما خلق سبحانه الإنسان خلق جوارحه منفعلة لإرادته ، وإرادته مكيفة حسب اختياره . فإرادة الطائع إطاعة أمر واجتناب نهى ، وإرادة العاصى على العكس ؛ لا يطيع الأمر ولا يتجنب المنهى عنه. فواحد أراد أن يشرب الخمر ، فرجله مشت ، ولسانه نطق للرَّجُل الذى يعطيه الكأس ، ويده امتدت وأخذت الكأس وشرب ، والجوارح التى تقوم بهذه العملية هى خاضعة لقادرية إرادته ، فقد خلقها ربنا هكذا ، وبعد ذلك ، حين تذهب إلى من دبر هذا الأمر فى الآخرة تقول له : يارب هو عمل بى كذا وكذا ، لماذا ؟ لأن قادرية الإرادة امتنعت :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وليس لى ولا لأحد إرادة فى الآخرة ، ومادام ليس لى إرادة فاليد تتكلم وتعترف : عمل بى كذا كذا وكنت يارب مقهورة لقادرية إرادته التى أعطيتها له فبمجرد ما يريد

فأنا أنفذ . عندما أراد أن أضرب واحداً لم أمتنع . ويعترف اللسان بسبّه لفلان ، أو مدحه لآخر ، إذن فكل هذه ولاية القادرية من الإرادة على المقدورات من الجوارح . لكن إذا ما ذهبت إلى من وهب القادرية للإرادة ؛ فلا يوجد أحد له إرادة . فكأن الجوارح حين تصنع غير مرادات الله بحكم أنها خاضعة للمريد وهو غير طائع تكون كارهة؛لذلك تفعل أوامر صاحبها وهي كارهة ، فإذا ما انحلت إرادته وجدت الفرصة فتقول ما حدث :

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

« يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تُسوَّى بهم الأرض » ، لأن الكافر سيقول :

﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النبأ)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾

هنا ينقلنا الحق من الأوامر ، من العبادات وعدم الإشراك بالله ، من التحذير من النفقة رئاء الناس وأنه سبحانه لا يظلم أحداً وأننا كلنا سنجتمع أمامه يوم لا ظل إلا ظله ، بعد ذلك أراد أن يصلنا به وصل العبادية التى تجعلك تعلن ولاءك لله فى كل يوم ، خمس مرات ، وسبحانه يريدك أن تقبل عليه بجماع عقلك وفكرك وروحك بحيث لا يغيب منك شىء .

هو سبحانه يقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ولم يقل : لا تصلوا وأنتم سكارى ؟ أى لا تقاربوا الصلاة ولا تقوموا إليها واجتنبوها ، وفيه إشارة إلى ترك المسكرات ، فما معنى « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »؟ معنى ذلك أنهم إذا كانوا لا يقربون الصلاة إذا ما شربوا الخمر ، فيكون تحريم المسكرات لم يأت به التشريع بعد ، فقد مرّ هذا الأمر على مراحل ؛ لأن الدين حينما جاء ليواجه أمة كانت على فترة من الرسل أى بعدت صلتها بالرسل ، فيجىء إلى أمر العقائد فيتكلم فيها كلاماً حاسماً باتًا لا مَرْحليَّة فيه ، فالإيمان بإله واحد وعدم الشرك بالله هذه أمور ليس فيها مراحل ، ولا هوادة فيها . لكن المسائل التى تتعلق بإلف العادة ، فقد جاءت الأوامر فيها مرحلية . فلا نقسر ولا نكره العادة على غير معتادها بل نحاول أن نتدرج فى المسائل الخاضعة للعادة مادام هناك شىء يقود إلى التعود .

إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بمن يشرع لهم جعل فى مسائل العادة والرتابة مرحليات ، فهذه مرحلة من المراحل : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، والصلاة هى : الأقوال والأفعال المعروفة المبدوءة بالتكبير والمنتهية بالتسليم بشرائطها الخاصة ، هذه هى الصلاة ، اصطلاحياً فى الإسلام وإن كانت الصلاة فى المعنى اللغوى العام هى : مطلق الدعاء .

و« سُكارى » جمع « سكران » وهو من شرب ما يستر عقله ، وأصل المسألة مأخوذة من السُّكْرُ ما سد به النهر؛ فالماء حين ينساب يضعون سداً، هذا السد يمنع تدفق الماء ، كذلك الخمر ساعة يشربها تمنع تدفق الفكر والعقل ، فأخذ من هذا المعنى ، « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » المفهوم أن الصلاة تأخذكم خمسة أوقات للقاء الله ، والسُّكر والخُمار ؛ وهو ما يمكث من أثر المسْكِر فى النفس ، ومادام لن يقرب الصلاة وهو سكران فيمتنع فى الأوقات المتقاربة بالنهار . إذن فقد حملهم على أن

يخرقوا العادة بأوقات يطول فيها أمد الابتعاد عن السُّكر . ومادامو قد اعتادوا أن يتركوها طوال النهار وحتى العشاء ، فسيصلى الواحد منهم العشاء ثم يشرب وينام . إذن فقد مكث طوال النهار لم يشرب ، هذه مرحلة من المراحل ، وأوجد الحق سبحانه وتعالى فى هذه المسألة مرحليات تتقبلها النفس البشرية . فأول ما جاء ليتكلم عن الخمر قال :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

ويلاحظ هنا أن « السَّكَر » مقدم ، على الرزق الموصوف بالحسن ، ففيه سكر وفيه رزق . كأنهم عندما كانوا يأكلون العنب أو البلح فهذا رزق ، ووصف الله الرزق بأنه حسن . لكنهم كانوا أيضا يأخذون العنب ويصنعون منه خمراً ، فقدم ربنا « السَّكَرَ » لأنهم يفعلون ذلك فيه،ولكنه لم يصفه بالحسن ، بل قال : « تتخذون منه سكراً » ، لكن كلمة رزق وُصفت بالحسن .

بالله عندما نسمع « سكَراً ورزقاً حسناً » ألا نفهم أن كونه سكراً يعنى غير حسن ، لأن مقابل الحسن : قبيح . وكأنه قال : ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا أى شرابا قبيحا ورزقاً حسناً ، ولاهتمامكم أنتم بالسكر ، قدمه ، وبعد ذلك ماذا حدث ؟ عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يأتى بحكم تكون المقدمة له مثل النصيحة ؛ فالنصيحة ليست حكماً شرعياً ، والنصيحة أن يبين لك وأنت تختار ، يقول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

هو سبحانه شرح القضية فقط وأنت حر فى أن تختار فقال : « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولكن الإثم أكبر من النفع ، فهل قال لنا ماذا نفعل ؟ لا ؛ لأنه يريد أن يستأنس العقول لترجح من نفسها الحكم ، وأن يصل الإنسان إلى الحكم بنفسه ، فسبحانه قال : « وإثمهما أكبر من نفعهما » فمادام الإثم أكبر من النفع فما مرجحات البدائل ؟ مرجحات البدائل تظهر لك حين تقارن بين بديلين ثم تعرف أقل البديلين شرّاً وأكثر البديلين خيراً .

فحين يقول الحق : « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » إذن فهذه نصيحة ، ومادامت نصيحة فالخير أن يتبعها الإنسان ويستأمن الله على نصيحته . لكن لا حكم هنا ، فظل هناك ناس يشربون وناس لا يشربون ، وبعد ذلك حدثت قصة من جاء يصلى وقرأ سورة الكافرون، ولأن عقله قد سدّ قال : قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون فوصلت المسألة ذروتها وهنا جاء الحكم فنحن لا نتدخل معك سواء سكرت أم لا ، لكن سكرك لا يصح أن يؤدى بك أن تكفر فى الصلاة ، فلا تقرب الصلاة وأنت مخمور . هذا نهى ، وأمر ، وتكليف .

« لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ومادام لا نقرب الصلاة ونحن سكارى فسنأخذ وقتاً نمتنع فيه ، إذن ففيه إلف بالترك ، وبعد ذلك حدثت الحكاية التى طلبوا فيها أن يفتى الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمر الخمر ، فقالوا للنبى : بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزل قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

إذن فقوله : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، مرحلة من مراحل التلطف فى تحريم الخمر ، فحرمها زمناً ، هذا الزمن هو الوقت الذى يلقى الإنسان فيه ربه ، إنّه أوضح لك : اعملها بعيداً ، لكن عندما تأتينى فعليك أن تأتى بجماع فكرك وجماع عقلك ، « حتى تعلموا ما تقولون » فكأن هذه أعطتنا حكماً : أن الذى يسكر لا يعرف ماذا يقول ، هذه واحدة ، ومادام لا يعرف ما يقوله ، إن كان فى المسائل العادية فليقل ما يقول ، إنما فى العبادة وفى القرآن فلا يصح أن يصل إلى هذا الحدّ ، وعندما تصل إلى هذا الحدّ يتدخل ربنا فيقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .

ثم جاء بحكم آخر . « ولا جنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا » ومعروف ما هى الجنابة : إنها الأثر الناتج من التقاء الرجل بالمرأة . ويقال : إنها اللذة التى يغيب فيها الفكر عن خالقه ، وهذه لذة يسمونها « جماع اللذات » ؛ لأنها تعمل فى البدن تلك الرعشة المخصوصة التى تأخذ خلاصات الجسم ، ولذلك قيل : إنه نور عينيك ومخّ ساقِك فأكثر منه أو أقلل. يعنى أنا أعطيك هذه المقدرة وأنت حرّ. ونحن نغتسل لنعيد النشاط إلى النفس البشرية ، وليس لأحد شأن بهذه المسائل مادامت تتم فى ضوء

شريعة الله وشأننا فى ذلك أن نأتمر بأمر ربنا ونغتسل من الجنابة سواء فهمنا الحكمة من وراء ذلك أو لم نفهم .

« ولا جنباً إلا عابرى سبيل » إذا كان المراد بالصلاة ، فلا تقربوا الصلاة ، بالسكر أو بالجنابة ولم يقل : « لا تصلوا » . والصلاة مكانها المسجد ، فقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً » ، أى لا تقربوا الصلاة ، والقرب عرضة أن يكون ذهابا للمسجد ، فكأنه يقول : لا تذهب إلا إذا كان المسجد لا طريق للماء إلا منه .

« وإن كنتم مرضى أو على سفر » أى كان عندكم عذر يمنع من الماء . « أو جاء أحد منكم من الغائط » ، و « الغائط » هو : الأرض الوطيئة ، الهابطة قليلاً ، وكانوا يقضون فيها حاجاتهم ، وأصبح علماً على قضاء الحاجة ، وكل واحد منا يكنى عنها بأشياء كثيرة فيقول واحد : أنا أريد أن أذهب إلى « بيت الماء » ويتساءل آخر أين « دورة المياه ؟ » وفى هذا تلطف فى الإخبار عن عملية تستقذرها النفس ؛ ولذلك نقول فى العبارات الشائعة : أنا ذاهب - أعمل زى الناس - يعنى أنا لست بدعاً أن أقضى حاجتى ، فكل الناس تعمل هذا .

فربنا سبحانه وتعالى يقول : « أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيبا » ومن رحمة الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن لطف الحق بها أن التشريع جاء ليقبل عليه الإنسان ؛ لأنه تشريع فلا تقل لى مثلا : أنا أتوضأ لكى أنظف نفسى ولكننا نقول لك : هل تتوضأ لتنظف نفسك وعندما تفقد الماء تأتى بتراب لتضعه على وجهك ؟ فلا تقل لى النظافة أو كذا ، إنّه استباحة الصلاة بالشيء الذى فرضه الله ، فقال لى : توضأ فإن لم تجد ماءً فتيمم ، أينقلنى من الماء الذى ينظف إلى أن أمسح كَفَّىَّ بالتراب ثم ألمس بهما وجهى ؟! نعم ؛ لأن المسألة أمر من الله فهمت علّته أو لم تفهم ؛ ولذلك فالنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « أعطيتُ خمسا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجُعلت لى الأرض مسجداً طهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة

وبعثت إلى الناس عامة »(١).

« فتيمموا صعيداً طيباً » ، أى أن تكون واثقاً أنه ليس عليه نجاسة ، « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، المسألة فيها « جنب » وفيها كذا وكذا . . « وتيمم » ، إذن فكلمة « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ليس ذلك معناه أن التيمم خَلَف وبديل عن الوضوء فحسب ، ففى الوضوء كنت أتمضمض ، وكنت أستنشق ، وكنت أغسل الوجه ، وكنت أغسل اليدين ، وأمسح الرأس والأذنين . . مثلاً ، وأنا أتكلم عن الأركان والسنن . وفى هذه الآية يوضح الحق : مادامت المسألة بصعيد طيب وتراب فذلك يصح سواء أكانت للحدث الأصغر أم للجنابة ، إذن فيكفى أن تمسح بالوجه واليدين .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » وتساءل بعضهم : أهى ضربة واحدة نلمس بها الأرض أم ضربتان ؟ نقول : سبحانه قال : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، وبعض العلماء قال : ضربة واحدة ، وبعضهم قال : ضربتان وكلها تيسير . وهذا التخفيف مناسب لكلمة العفو ، فيقول الحق : « إن الله كان عفواً غفوراً » ولكن ماذا حدث هنا ليذكر المغفرة ؟ لأنه غفر وستر علينا المشقة فى ضرورة البحث عن الماء ويسر ورخص لنا فى التيمم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾

حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد قضية من قضايا الكون ليمهد لقضية من قضايا العقائد التى تحرس نظام الكون فهو يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائى عن جابر .

بقوله : « ألم تر » . والرؤية عمل العين ـ وعمل العين متعلق بانكشاف الأحداث التى تتعرض لها العين ـ والشيء المرئى دليله معه ؛ لأن الشيء المسموع دليله يؤخذ من صدق قائله ، وصدق قائله أمر مظنون ، أيكذب أم يصدق ؟ أما المرئى فدليله معه ؛ ولذلك قالوا : ليس مع العين أين ، أى أنك إذا رأيت شيئاً فلا تقل:أين هو ، وليس الخبر كالعيان ، فالخبر الذى تسمعه ليس كالمشاهدة ، إذن فالمشاهدة دليلها معها ، فلا يقال: دلل على أن فلاناً يلبس جلباباً أبيض وأنت تراه .

إذن فحين يريد الحق أن يؤكد قضية يقول : أرأيت . ولذلك فأنت إذا حدثت إنساناً عن انحراف إنسان آخر . قد يصدقك وقد لا يصدقك ، لكن إذا ما رأيت الإنسان يلعب ميسراً أو يشرب خمراً ثم تقول لمن حدثته من قبل : ارأيت من قلت لك عليه ، كأن الرؤية دليل . والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أرأيت » ننظر إلى الأمر ، فإذا كان مشهوداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يراه بذلك تكون « أرأيت » على حقيقتها ، كما يقول له :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾

(سورة العلق)

هو صلى الله عليه وسلم قد رآه ، فتكون « أرأيت » على حقيقتها أم ليست على حقيقتها ؟ ولماذا يأتى بهمزة الاستفام « أرأيت » ؛ على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى من ينهى إنساناً عن الصلاة ولماذا لم يقل : « رأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى » ، لا ؛ لأن الحق يريد أن يؤكد الخبر بمراحل . فمرة يكون الخبر خبراً تسمعه الأذن ، ومرة يكون رؤية تراه ، ومرة لا يقول له : أنت رأيت ، ولكن يستفهم منه بـ« أرأيت » لكى ينتظر منه الجواب . وبذلك يأتى الجواب من المخاطب نفسه وليس من المتكلم ، وهذه آكد أنواع البيان وآكد ألوان التحقيق ، فحين يخاطب الحق سبحانه وتعالى بقوله : « أرأيت » نقول : أكان ذلك مشهداً لرسول الله رآه ، فتكون الرؤية على حقيقتها . فإذا كان الأمر لم يكن معاصراً لرسول الله ثم يخاطب الله رسوله بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

ونعلم أن أصحاب الفيل كانوا عام ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فهو حين

يخاطب رسوله لم يكن المشهد أمامه ، فـ« ألم تر » هنا بمعنى أعلمت ، ولماذا عدل هنا عن أعلمت إلى قوله : « ألم تر » ؟ . لأن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله بأمر منه فهو يوضح له : إن أخبرتك بشيء فاعلم أنى أصدق من عينك ، فإذا قال سبحانه : « ألم تر » فهذا يعنى أنك علمت من الحق سبحانه وتعالى ، وإخبار الحق ليس كإخبار الخلق ؛ لأن إخبار الخلق يحتمل الصدق والكذب ، لكن إخبار الحق لا يعنى إلا الصدق ، إذن فرؤية عينك قد تخونك ؛ لأنك قد تكون غافلاً فلا ترى كل الحقيقة ، لكن إذا أخبرك الحق سبحانه وتعالى فسيخبرك بكل زوايا الحقيقة . إذن فإخبار الحق أوثق وآكد من رؤية العين وسبحانه عندما قال :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾

(سورة العلق)

هذه مثلت الأولى ، وحين قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

كأنك تراهم الآن ، فـ« ألم تر » تعنى كأن المشهد أمامك .

إذن فوسائل تأكيد الأشياء : خبر من خلق يحتمل الصدق ويحتمل الكذب . هذه واحدة ، ورؤية من خلق تحتمل أنها استوعبت كل المرئى أو أحاطت ببعضه ، أو خبر من خالق أحاط بكل شيء ، فيجب أن يكون الخبر من الخالق أوثق الأخبار فى تصديقهم .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاءت هذه الآية ورسول الله يعاصره قوم من اليهود . ورأى منهم بالفعل أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب ، لأنهم أهل كتاب ، ومع ذلك يشترون الضلالة ؛ ولا يقولون الحق ، فيكون هذا أمرا مشهديا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحينما أرسل الله محمداً جعله ختاماً للأنبياء وختم به ركب النبوة ، وهذا يعنى : أن النبوة كان لها ركب . وفى كل عصر من العصور يأتى نبى على مقدار اتساع الحياة ، وعلى مقدار التقاء الكائنين فى الحياة ، وعلى مقدار الداءات والأمراض التى تأتى فى المجتمع ، ولكن الله علم أزلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتى فى فترة ورسالته ومنهجه ينتظم ويضم كل قضايا الزمن إلى أن

تقوم الساعة . وهو زمن يعلم الله أن فوارق المواصلات فيه ستنتهى ، وفوارق الحواجز فيه ستنتهى ، فيحدث الخبر فى أدنى الشرق وأعلاه فتسمعه فى أدنى الغرب وأعلاه ، والخبر فى الغرب تسمعه فى الشرق . والداء يوجد مرة فى أمريكا وبعد يوم أو يومين يوجد فى أى بلد من البلاد .

إذن فالمسافات انتهت ، وجعلت المواصلات العالم كقطعة واحدة ، إذن فالداءات فى المجتمع القديم لعسر الاتصال كانت تنعزل انعزالاً إقليمياً وكل داء فى جماعة قد لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، فهؤلاء لهم داء لا يصل إلى الجماعة الأخرى ؛ لذلك كان الحق يرسل رسولاً لكل جماعة ليعالج داءاتها،لكن إذا التحم العالم هذا الالتحام ؛ فلا بد أن يأتى رسول واحد جامع للناس جميعاً ؛ لأن قضايا الداءات ستكون واحدة . ونحن نرى الآن كل يوم عجبا ، كلما تحدث حادثة هناك نجدها عندنا .

إذن فلا بد أن تتوحد الرسالة . وحين تتوحد الرسالة فلا يأتى رسول ليستدرك بعد ذلك ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم جاء خاتماً ؛ ولذلك أخذ الله العهد على كل رسول أن يبشر قومه بأنه سيأتى رسول خاتم ليكون عند أهل كل ديانة خَلْفية تطمئنهم على أنه إذا جاء رسول ، فقد عرفوا خبر مقدمه ويقولون : لقد قالت لنا رسلنا ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ثم قال :

﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرّج أحاديثه فضيلة الدكتور / أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فرسول الله مشهود له من كل الرسل ؛ ولذلك أكد صلى الله عليه وسلم ديانات كل الرسل . وجاء دينه بديانات كل الرسل ؛ لأنهم معه على منهجه الذى نزل به ، والذين يلتحمون بالإيمان بالسماء بواسطة الرسل السابقين ؛ إذا ما جاءهم خبر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد يجعلهم تعصبهم لدينهم ينصرفون عنه ، فأعطاهم الحق الخميرة الإيمانية وأوضح لهم : سيأتى رسول خاتم فتنبهوا يا كل الأقوام إذا ما جاء الرسول الخاتم فلا بد أن تؤمنوا به . وكان عندهم فى كتبهم الدلالات والإخبارات . إذن فالله أعطاهم نصيبا من الكتاب . وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى : « ألم تر » يا محمد « إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاء هذا القول وهو يحمل لهم عذرهم إن فاتهم شىء من الكتاب ؛ لأنه سيقول فى آية أخرى :

﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

ومادامو قد نسوا فهم معذورون ، لكن من عندهم كفاية فى العلم من الذين « أوتوا نصيباً من الكتاب » ، كان المفروض فيهم أن تكون آذانهم مستشرفة إلى صوت داعية الحق الخاتم ، وهذا كان معروفا لهم من قبل ؛ لذلك يقول لنا ربنا :

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فهم كانوا يقولون لعبدة الأوثان من العرب : نحن فى انتظار النبى الخاتم الذى سيرسله الله لنسبقكم إلى الإيمان به ، فإذا ماسبقناكم إلى الإيمان به وظللتم على كفركم ، سنقتلكم به قتل عاد وإرم . إذن فهم معتصمون بالإيمان بالسماء ، فقل لى : إذا قالوا هذا القول ، وهم معروفون أنهم أهل كتاب فلماذا كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم ؟ إن كفار قريش لم يقولوا : إننا أهل كتاب ، بل كانوا على فترة من الرسل ، فكان المفروض أنه إذا ما جاء الرسول تسابق أهل الكتاب إلى الإيمان به لأنه سبق لهم أن توعدوا به العرب . لقد أعطاهم الله منزلة عالية لكنهم من لؤمهم لم ينتفعوا بها ؛ فيقول الحق :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد جعلكم الحق شهوداً على صدق الدعوة ، هو شاهد وأنتم شهود ، وهذه منزلة كبيرة ، لكنهم لم يلتفتوا إلى تلك المنزلة وركبوا سفينة العناد الغارقة :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ولكن يجب أن نفطن إلى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يرسل قضية عقدية فى الكون فيخالفها مخالف يظن أنه يضار الله ، نقول له : لا.أنت تفعل ذلك لشهوة فى نفسك . لكن الحق سيجعلها لنصرة الدين الخاتم ، وتكون أنت مغفلاً فى هذا الموقف . فإياك أن تظن أنك قادر أن تصادر مرادات الله حين كذبت بمحمد وجعلك ربنا تقول هذه الكلمة للمشركين من قريش ، فانظر ماذا ستفعل هذه الكلمة ؟ . ولكى تعرف أنت بإنكارك ماذا قدمت للإيمان . أنت فهمت أنك صادمت الإيمان . لا . أنت أيدت ونصرت الإيمان لكن بتغفيل ! وعليك وزر .

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلن دعوته من ربه . قال العرب المشركون الوثنيون : إن هذا النبى هو الذى توعدتنا به اليهود ، فهيا نسبق إلى الإيمان به قبل أن يسبقونا .

إذن أخدموا الإيمان أم لا ؟ . . لقد خدموا الإيمان . إذن فلا يظنن عاصٍ أنه يقدر أن يطفىء نور الله ، لأن الله يتم نوره ولو كره الكافرون . ومثال لذلك عندما غيّر ربنا القبلة ويوضح : يا محمد أنا أعرف أنك مستشرف ومتشوق إلى أن تتوجه إلى الكعبة ، وأنا قد وجهتك أولاً لبيت المقدس لمعنى . ولكن أنا سأوجهك للكعبة وعليك أن تلاحظ أنى حين أوجهك إلى الكعبة سيقول السفهاء « وهم اليهود » :

﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فهم يتساءلون : ما الذى جعلهم يتركون القبلة التى كانوا عليها ؟ فإن كانت قبلة إبراهيم هى الكعبة فلماذا لم يتجه إليها من أول الأمر ؟ هم سيقولون هذا الكلام . ونزل به قرآن يتلى ويسجل . ومن تغفيلهم ساعة تغيرت القبلة قالوا ذلك القول أيضاً ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق قال من قبل :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فعلى الرغم من ذكائهم إلا أنهم قالوا هذا الكلام ، مما يدل على أن الكفر مظلم والكافر فى ظلام فلا يعرف كيف ينصر نفسه . وجعل الله الكفر وسيلة للإيمان . فلو أنهم كانوا أذكياء بحق وأصحاب بصيرة لكانوا بمجرد أن قال القرآن : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » ، لجمعوا بعضهم وقالوا : القرآن قال : إننا سنقول كذا وكذا ، فهيّا لا نقول كى يكون القرآن غير صادق . لكنهم لم يقدروا على ذلك . إذن فالكافر مغفل . هم يظنون أنهم بكفرهم يطمسون الإيمان بالله . لا ؛ لأن الله جعل الكفر وسيلة للإيمان ، والحديث الشريف يقول :

(إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يبيّن : هؤلاء أوتوا نصيباً من الكتاب ، وكان المفروض لمن أوتوا نصيباً من الكتاب أن يكونوا أول من آمن . لكنهم لم يؤمنوا ، هذه أول مرتبة ، وليتهم اقتصروا فى الشرّ على هذه ، وبذلك تقف المسألة وتظل معلقة بهم ، ولكنهم يشترون الضلالة ، ليس فقط فى نفوسهم بل يريدون أن يُضلوا غيرهم ، وهذه هى المرحلة الثانية ، فهناك من يَضِل فى ذاته وهو حرّ ، لكن أن يحاول إضلال غيره فهذا كفر مركب . أنت ضَلَلْت وانتهيت ، فلماذا تريدنى أن أضل ؟ لأن الضال أو المنحرف أو الذى ليس على طريق مستقيم إنما يعرف الطريق المستقيم جيداً . ولكن الصعوبة فى أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه عليه . فإذا ما وجد إنساناً مؤمناً فهو يستصغر نفسه ، « لماذا آمن هو وأنا لم أؤمن » ؟

إذن فلا أقل من أن يحاول جذبه فى صفه حتى لا يكون هو المنحرف الوحيد ، فإذا رأيت مثلاً فى بلد من البلاد بعض المنحرفين ، ويرون واحداً مستقيماً فهم يتضاءلون أمامه ، وينظرون إليه نظرة حقد ، ويقولون : لماذا هو مستقيم ؟ لا بد أن نسحبه للانحراف .

---

(١) رواه البخارى .

ولذلك يجب على المستقيمين أن ينتبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس لن تتركهم فى طاعتهم ، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم ، لأنه يعزّ عليهم أنهم لا يقدرون على أنفسهم ويحزّ فى نفوسهم أكثر أن يجدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام . ولذلك يقولون : هيا نكون كلنا معاً فى المعصية حتى لا يرفع أحد رأسه على الآخر. فلنكن كلنا كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يذلنا . والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربة تنغرز فى قلبه !! والخائن ساعة يرى الأمين تكون الرؤية حربة تنزل فى قلبه ؛ فيريد أن يكون الكل مثله ، هذه معنى « يشترون الضلالة » .

والحق يقول لهم : أنتم أحرار بشرائكم الضلالة وستجدون الجزاء فى النار ، فلماذا تريدون أن تضلوا الناس ؟ إذن فيجب أن ينتبه أهل الطاعة إلى هذا الأمر ، وعندما يستهزىء أحد من طاعتهم فعليهم أن يلتفتوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾

(سورة المطففين)

وهذا ما يحدث إذا رأى بعض المنحرفين واحداً يذهب إلى المسجد أو يصلى ، يقولون له : « خذنا على جناحك » ويسخرون منه ويستهزئون ، لأنهم ساعة يرونه مقبلاً على الطاعة وهم غير قادرين على أن يكونوا طائعين يتضاءلون أمام أنفسهم ؛ لذلك يريدون أن يكون الكل غير طائع ، وهذه هى الصورة التى نراها الآن ، وعندما يقابل هؤلاء أهاليهم يتضاحكون بسرور من أنهم ضايقوا مؤمناً ، ويقولون : قابلنا مؤمناً واستهزأنا به ، ويتابع الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

فالله سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن هؤلاء المستهزئين بالدين يتهمون المتدينين بأنهم على ضلال . فإياكم أن تيأسوا أمام هؤلاء ، إياكم أن تهزموا أمام هؤلاء لأننى سأنتقم عياناً من هؤلاء ، وذلك يأتى يوم الآخرة ويقول الله بعد أن ينزل بهم النكال والعذاب :

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة المطففين)

فالحق يتساءل ليأتى الجواب على ألسنتنا ، والسؤال هو : هل قدرنا أن نجازيهم على ما فعلوه فيكم ؟ فاسخروا أنتم منهم ، واضحكوا عليهم كما سخروا منكم فى الدنيا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم اليهود . و « أوتوا نصيباً من الكتاب » أى أنهم لم يأخذوا بكل الكتاب بدليل أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ، « ويشترون الضلالة » ، وساعة تسمع كلمة « يشترى » اعرف أن هناك معاوضة ومبادلة ، سلعة وثمنا ، فيشترون الضلالة بماذا ؟ ماذا سيدفعون ؟ الحق يقول فى آيه أخرى :

﴿ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٦ سورة البقرة)

أى أنهم دفعوا الهدى ثمناً وأخذوا الضلالة سلعة ، وعادة ما ندفعه يضيع من يدنا ، وما نشتريه نأخذه لنا . فحين تشترى سلعة بجنيه . فالجنيه يضيع ، بعد أن كان معك أولاً ، فحين يقول : « اشتروا الضلالة بالهدى » فهل كان معهم هدى وقدموه وأخذوا الضلالة ؟! نعم ، كان معهم هدى الفطرة . فكل واحد عنده هدى الفطرة .

إياك أن تظن أن العقل الواعى ينتظر رسولاً ليدله على الله ، إنما هو ينتظر رسولا ليبلغه مرادات الله منه ، ذلك أن الإيمان بالله أمر من أمور الفطرة ، فالإنسان عندما يتفتح وعيه يجد أشياء فى الكون تخدمه ، خدمة مستقيمة رتيبة ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ، هناك شمس تطلع كل يوم ، وهواء يمر ، أرض عندما تزرعها تعطيك خيراً كثيرا . ألك قدرة على شىء من هذا ؟ هل ادعى إنسان مثلك أن له قدرة عليه ؟ كل هذه الكائنات أنت تطرأ عليها ، ولم تأت بها .

وعندما يولد الإنسان ويرى كل هذه النعم موجودة . ألا يؤمن بأنها من عطاء خالق ؟ الإنسان فوجىء عندما ولد بوجود النعم . وأيضاً آدم عندما خلق فوجىء بالنعم موجودة ، إذن فهو قد طرأ عليها ، بالله مادام هو قد طرأ عليها ألا يفكر من الذى أقام هذه النعم له ؟ كان لابد أن يفكر من الذى صنع له كل هذه النعم ، وضربنا من



قبل مثلاً بمن انقطعت به الوسائل وهو فى الصحراء ولم يجد ماءً ولم يجد طعاماً، ثم يئس فنام ، ثم استيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبلها يأكل ألا ينظر ويفكر ويقول فى نفسه : من الذى أعدّ وأقام تلك المائدة ؟ أنت ـ إذن ـ وارد على الكون بخيره كله ، ولا أحد قال لك : أنا الذى فعلته ، لا أبوك ولا جدك ولا جد جدك قال هذا ، فلا بد أن تنتبه إلى أن له خالقاً .

إذن فالذين اشتروا الضلالة بالهدى ، أكان معهم هدى فقدموه وأخذوا الضلالة ؟ ! نعم كان معهم هدى الفطرة ، ولذلك حين سئل الإمام على ـ كرّم الله وجهه ـ : أعرفت ربك بمحمد أم عرفت محمداً بربك ؟

قال : لو عرفت محمداً بربى ما احتجت إلى رسول ، إذن فلايصلح أيضا أن يقال لأحد « عرفت ربك بمحمد »؛لذلك قال على كرم الله وجهه : ولكنى عرفت ربى بربى ، وجاء محمد فبلغنى مراد ربى منى . إذن فقوله : « الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ماذا فعلوا ؟ باعوا هدى الفطرة واشتروا الضلالة . وهنا يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة » .

ولم يأت بـ « الهدى » هنا ، وهذا يدل على أن الفطرة انطمست عندهم انطماسا بحيث لم يقدموا ثمناً للضلالة من الهدى .

« ويريدون أن تضلوا السبيل »و الإرادة هى : أن يرجح الشخص المختارُ حكماً على حكم ، ومثال ذلك : أنت أمامك جوربان مثلا ، فلك أن تختار واحداً منهما ، لكن لو كان أمامك جورب واحد فإرادتك لاترجح . إن الإرادة ترجح اختيارا على اختيار ، وما معنى « تضلوا »؟ الضلال يطلق بإطلاقات متعددة ، فحواها كلها أن هناك أمراً من الحق ليس على بالك ، فهل يحدث ذلك لأنك نسيته أو عرفته وتعمدت أن تتركه ؟ . فالذى نسى هذا الأمر معذور.لكنْ هناك إنسان آخر يعرف هذا الأمر لكنه تعمد أن يتركه ، إذن فالضلال يطلق مرة على النسيان كما فى قول الحق :

﴿ أن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالضلال هنا نسيان لكن هناك من يضل لأنه يفتقد المنهج الحق ويتشوف ويتطلع إليه ليتبعه ، كما فى قوله :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن المسائل متشعبة على الإنسان فيرى هذا وذاك ، فأوضح الحق لك : لاتتعب نفسك لأنى سأعطيك السبيل المستقيم . إذن فالضلالة لها معان متعددة ، وفحواها جميعاً أنها لاتوصلك إلى الغاية ، والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض قضية إيمانية عقدية معنوية يستعمل فيها الألفاظ التى يستعملها الناس فى الكونيات ، ولذلك فما هو السبيل؟ . السبيل ـ عندنا ـ هو الطريق ، وكلنا حتى غير المؤمنين يعرفون أن الطريق يُصنع ليوصل إلى غاية ، ولكن لابد أن نعرف الهدف أولاً وبعد ذلك نرصف الطريق ونعبّده ، ففيه فرق بين السبب الدافع والواقع .

نحن قبلما نرصف الطريق نرى إلى أين يذهب؟ إذن فالغاية أولاً وبعد ذلك نلتمس أقصر طريق يوصلنا إلى المطلوب . وعندما نكتشف أقصر طريق يوصلنا للمطلوب نمهده ونعبّده لكيلا نتعب الناس ، إذن فالسبيل هو : الطريق الموصل إلى الغاية . ولذلك أوضح لنا الحق أن الطريق إلى الإيمان مستقيم كى لا يأخذ مسافات ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط .

إننا لا بد أن نعرف الغاية قبل أن نعرف السبيل إلى الغاية . وآفة الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولايعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غاياتهم الجزئية ، فالطالب يريد أن يتعلم كى يكون موظفا ، لكى يتزوج ويقيم أسرة ، والتاجر يتاجر لكى يعمل كذا ، هذه هى الغايات الجزئية ، والذكى هو من لايذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخيرة ؛ لأن الناس تختلف فى الغايات المنتهية ، فواحد يعيش خمسين سنة ، وآخر يعيش ستين عاماً ، وثالث يعيش لمدة سنة ، إذن فلابد أن تنظر إلى الغاية التى سيذهب لها الكل ، وآفة الناس أنها تعمل للدنيا ، يعنى للغايات القريبة ، برغم أن « الدنيا » تعنى الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها « الدنيا » ، ومادامت « دنيا » إذن فهناك « عليا » .

إن تعب الناس يأتى من أنها تعمل للغايات الدنيا ؛ لذلك نقول لكل إنسان : انظر الغاية العليا التى سيكون الكل شركاء فيها ، والكل لابد أن يصل لها . فإذا ما عرفنا الغاية العليا نجونا من إرهاق قصر النظر والغرق فى الغايات المحدودة ، مثلاً : أنت تبعث ابنك ليتعلم من سن الحضانة ثم إلى الروضة ثم الابتدائى ثم الإعدادى ثم الثانوى ثم التعليم العالى ثم يتخصص فى مجال معين فى التعليم العالى ، وتصل سنوات عمره إلى العشرين سنة ليتخرج ويتوظف ويقدر أن يعيش بكده وعرقه،والأب يعمل لهذه الغاية ، وقد لا يصل الابن إلى الوظيفة ، وقد يُتعب الابن والده ولا يكمل تعليمه وبذلك تفلت منه الغاية . لكن نحن نريد الغاية التى لا تفلت ، فأنت الآن تعيش فى أسباب خلقها لك الحق ، فاجعل غايتك أن تعيش مع الحق .

إنك فى الدنيا تعيش مع الأسباب التى خلقها لك الحق ، لكنك فى الآخرة ستكون مع الحق نفسه . أنت فى الدنيا تعيش بالأسباب ، ولكنك تعيش فى الآخرة بالمسبب ، ومهما ارتقت أسبابك . فأنت لن تستطيع أن تصل إلى مستوى رفاهة الآخرة . صحيح أنه إذا ارتقت حياتك فى الدنيا فقد تضغط على زر فى الحجرة ويأتيك فنجان قهوة ، أو تضغط على زر فيأتيك الأكل ، ولكن قل لى مهما ارتقت الحياة أيوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشىء على بالك يأتيك ؟ لا يمكن ، وهذا ما سيكون لنا فى الآخرة ، إذن فهذه هى الغاية الحسنة ، ونحن نعيش فى الدنيا مع أسباب الله الممدودة لنا ، أما فى الآخرة فسوف نعيش مع الله ولذلك أوضح سبحانه : سأعطى المؤمن والكافر الأسباب فى الدنيا ، فالكافر عندما يزرع يجد نتاجاً ، وعندما يبحث فى الكون وينظر أسراره فالأسرار تتكشف له ، لأن الأسباب خلقها الله لمن يأخذ بها سواء أكان مؤمناً أم كافراً . لكن المسبب لا يذهب له إلا من آمن به ، أما الكافر فقد آمن بالأسباب فأخذ الأسباب ، ولم يمنعها الله منه:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

إذن فهل غايتك أن تبقى مع الأسباب أو تذهب إلى المسبب ؟ انظر إلى غايات

الدنيا القريبة ، ستجد أنها قد تنتهى قبل أن تصل إليها ويكون تعبك قد ذهب هباء . ولذلك أخفى الله الموت وأسبابه وزمنه كى يختبر الإنسان ، فهناك من يحقق كل ما رغب فيه وفى آخر الأمر تنتهى المسألة بالموت ، وهو قد أخذ الهباء لأنه لم يؤمن بالمسبب ، هب أنه أخذ الدنيا كلها عنده ، نقول له : سيأتيك الموت ، يعنى إما أن تفارق أنت النعمة وإما أن تفارقك النعمة ، ولكن فى الحياة الآخرة أنت لا تفارق النعمة ولا النعمة تفارقك.فهذه ـ إذن ـ هى الغاية الحقة ، غاية العقلاء . ومتعتك فى دنياك كما قلنا على قدر أسبابك.أما متعتك فى الآخرة فهى على قدر المسبب ، وسبحانه لا يقادر قدره ولا أحد يماثله فى فعله . والعاقل هو من ينظر إلى الغاية البعيدة .

إذن فالسبيل لا يمكن أن يكون طريقاً إلا إذا علمت الغاية ، والذى يجعل الناس تتعب فى الدنيا ، أنهم لا يعرفون إلا الغايات القريبة ، ولذلك سماها « الدنيا » ولا يوجد اسم أدنى من ذلك لها ، وكان يجب أن يوحى هذا الاسم بأنها فانية وهناك باقية . إذن فقبلما ترسم السبيل لابد أن تحدد الغاية . وبعدما تحدد الغاية تختار السبيل الذى يوصلك للغاية ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين واقع ودافع ، الشىء الدافع هو أن تنصب الغاية أولاً وتحددها ، فالتلميذ يجتهد كى ينجح ، وينجح لكى يأخذ حظه فى الحياة ، وهذه الغاية لابد أن توجد فى ذهنه قبلما يتعلم ، وعندما يتصور النجاح ولذته فى ذهنه فهو يبدأ فى المذاكرة ، وعندما يذاكر يصل إلى الغاية وهى النجاح ، فالغاية نوعان : غاية دافعة ، وغاية واقعة ، فالغاية الدافعة تسبق الطريق ، والغاية الواقعة تتأخر عن الطريق ، ومن الذى يحدد الغاية ؟ .

إن الذى يحدد غاية كل شىء هو من صنعه ، وغايتك أنت من الذى يحددها ؟ أنت تحدد الغايات الدنيا ، أما الغايات العليا فعليك أن تتركها للأعلى ليحددها وهو الله . ومادام هو سبحانه الذى يحددها لأنك صنعته وخَلقه ؛ لذلك تسأله : أنت سبحانك الذى تعلم موقعها فهيىء لنا الطريق الذى يوصلنا لها . لابد إذن من الإيمان إذا ما كانت الغاية هى أن تعيش مع الحق ، والسبيل هو المنهج :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

أى أن سبلكم أنتم لا توصلكم إلىّ ؛ لأنكم حددتموها بغاياتكم ، أمّا أنا فقد

حددت السبيل بغايتى فمن أراد أن يصل إلىّ فلينظر إلى طريقى . وكلمة « السبيل » ، و« الطريق » كلها أمور حسية ، والحق يستعملها لنا ليدلنا على المعانى العقدية والمعانى المعنوية يوضحها ـ سبحانه ـ بأمور حسية أمامنا ، وعندما توجد فى مفترق طرق وتريد أن تصل إلى المنطقة الفلانية . فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق ، يبعدك عن الهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة ، فأنت تتوه ، ونمثل لهذا بشىء بسيط جداً : كلنا نركب القطارات ، والقطارات تسير على قضبان مستقيمة . فإذا أردنا أن نحول القطار فنحن لا نرفعه ونضعه على قضيب آخر ، بل نأتى بتحويلة لا تتجاوز اثنين من الملليمتر ونقربها إلى حد الالتصاق فى القضيب الأصلى ، وهذا ما يفعله « المحولجى » ، فينحرف القطار لينتظم الخط وليصل إلى المحطة المطلوبة .

ولفتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بما رواه سيدنا حذيفة ـ رضى الله عنه ـ حينما قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ـ أى أن الإيمان فطرى ـ ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة .

ثم حدثنا رسول الله عن رفع الأمانة قال :

«ينام الرجل النومة فتغيض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ـ وهو اللسعة التى توجد أثراً على الجلد ـ ثم ينام الرجل النومة فتغيض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجْل» (والمجل هو أثر الجمرة التى تظل مدة طويلة على جلد الإنسان فتسبب ورماً فيه مياه ـ كجمر دحرجته على رجلك فنفط ـ أى انتفخ ـ فتراه منتبراً وليس به شىء) فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال: « إن فى بنى فلان رجلاً أميناً »[1] .

ويستمر سيدنا حذيفة قائلاً :

ولقد مر علىّ زمان وما كنت أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه علىّ دينه ،

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأحمد .

ولئن كان نصرانياً ليردنه علىّ ساعيه ـ أى المحتسب ـ وأما الآن فما كنت أبَايع منكم إلا فلاناً وفلاناً .

إن الإيمان فطرى . إنّ قصارى ما يعطيك هذا الإيمان الفطرى أن وراء هذا الكون الدقيق قوة عظمى ؛ فالكون المنظم ، الرتيب ، الذى لا يدخل تحت طاقتك ولا تحت قدرتك ، هذا الكون يسير على أحسن نظام . والقوة العظمى القادرة التى وراء ذلك الكون تتصف بالقدرة ، وبالعلم ، وبالحكمة ، وبكل صفات الكمال .

لكن أيعطيك فكرك وعقلك اسم هذه القوة ؟ لا يمكن أن يعطى العقل اسم هذه القوة . أيعطيك فكرك وعقلك مرادات هذه القوة ؟ إنك لا تستطيع أن تعرف مرادات هذه القوة إلا برسول ترسله ليبلغ عنها . والرسول عندما يأتى يقول : إن القوة التى تبحثون عنها ، والتى آمنتم بها إيماناً مجملاً اسمها « الله » . فلا بد أن نصدق الرسول . فالعقل لا يقول لنا اسم القوة الخالقة . ولكن الذى يقول لنا اسم هذه القوة هو البلاغ ، ويعطينا الحق هذا البلاغ من خلال الرسول بكل مراداته من وجودنا .

وهذا هو أقصر طريق للوصول إلى الحق بعيداً عن تعقيدات الفلسفة أو تعقيدات المنطق ، وسفسطة الجدل ، هذا الطريق الذى يثبت أن من يعبد أى قوة غير الله لا حق له فى مثل هذه العبادة . فالذى يعبد الشمس مثلاً هل يستطيع أن يقول لنا ما هو منهج الشمس الذى تطلبه من الإنسان ؟ وماذا قالت لمن يعبدها جزاءً للفعل الحسن أو عقاباً على الفعل السيىء ؟ ماذا تستطيع هذه الشمس أن تفعل لمن لا يعبدها ؟ . إنها لا تملك ثواباً ولا عقاباً ، ولا منهج لها ، وإله بلا منهج لا يصلح أن يكون إلهاً . فالإله لا بد له من منهج يدل الناس على صواب الفعل وينهى عن سوء الفعل ويملك سلطان الثواب والعقاب . والشمس لا تملك منهجاً تعطيه،وكذلك الحجر أو القمر .

إذن فهذه الأشياء مخلوقة بدورها من قبل خالق ولا تصلح أن تكون آلهة . ووجود الرسل المبلغين عن الله دليل على صدق الدعوة. فالحق سبحانه وتعالى يعطينا إيماناً بوجوده من خلال المنهج . . ونحن قبل البلاغ نعرف أن هناكَ قوة خالقة لا نعرف

اسمها ولا مرادها ؛ ولذلك فعندما يأتى الرسول بالبلاغ فهذه رحمة من الله بالخلق . أما من يحاول أن يخطط بعقله لحياته بدون الرسول فنقول له : أنت تصيب نفسك وروحك بالتعب ولن تصل إلى شىء . ونضرب هذا المثل دائماً ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أننا نجلس فى غرفة والباب مغلق ثم طرق الباب طارق . هنا نتفق نحن الجلوس فى الغرفة فى أن وراء الباب طارقاً .

ولكن إذا أردنا تحديد هذا الطارق وتعيينه فسنختلف . فيقول قائل : إنه رجل . . ويقول آخر : لا.إنه امرأة . ويقول ثالث : لا.إنه طفل . ويقول رابع : هذا بشير . ويقول خامس : هذا نذير . ويقول سادس : إنه القادم لنا بالقهوة . ويقول سابع : إنه رجل مكلف بالقبض علينا .

هكذا نتفق على أن طارقاً بالباب ونختلف فى تحديد « مَن الطارق » . وهكذا الكون ، الكون وراءه قوة هائلة وعندما يحاول الإنسان أن يقول اسم هذه القوة بعقله أو مرادات هذه القوة فهذا يسبب الخلاف . ولكن حينما ترسل القوة عن نفسها رسولاً ليقول : إن القوة الخالقة اسمها الله ومرادات الله كذا ، ففى ذلك حسم للخلاف .

إن الذى أرهق الفلاسفة ووصل ببعضهم إلى دهاليز التيه ، هو أن بعضهم لم يكتف بتعقل القوة التى خلقت الكون . بل إنهم أرادوا أن يتصوروا القوة وما هياتها ومراداتها . ونقول : إن نظرة الفلاسفة إلى الخالق لا تصلح ؛ لأنهم بتلك النظرة يظلون فى التيه ، ولكن البلاغ عن طريق رسول هو الذى يحسم هذه المسألة . والحديث الذى رواه لنا سيدنا حذيفة عن الأمانة يصور لنا مهمة الإيمان وكيف يتعلم المؤمن من القرآن والسنة ، وعندما يهمل هذا العلم ، فما الذى يحدث ؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل لنا مراحل فقدان الأمانة . وينبهنا : احذروا من أن تتسلل الانحرافات بنومة قليلة ، ثم إلى أخرى أكبر منها ، ثم إلى ثالثة أكبر وأوسع . وشرحنا ذلك بمثل الانحراف المقصود لقطارات السكك الحديدية .

إن قوله الحق سبحانه : « يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل » كى لا ينفردوا ـ وحدهم ـ بالضلال ، والحق سبحانه يعطينا مناعة ضد كلامهم ، فهم لهم حظ من علم الكتاب وهذا قد يجعلنا نحسن الظن بأن لهم صلة بالسماء؛لأنهم أتباع رسل ، فسبحانه يوضح لنا : هؤلاء يريدون أن تضلوا السبيل ويتخذوا من نصيب الكتاب الذى عندهم وسيلة كى يضلوكم .

وفى عصرنا نجد أن أعدى أعداء أى عقيدة ليسوا أعداءها الظاهرين وإنما أعداؤها من أنفسهم . لأن عدوّى الظاهر الكافر يجابهنى وأنا واثق أنه يريد أن يدس لدينى ويدلس ويحرف فيه ، لكن عندما يكون هناك مسلم مثلى يأتى ليكلمنى فربما آخذ كلامه على أنه مسلم ؛ ولذلك فخصوم الإسلام يئسوا أن يواجهوا الإسلام مواجهة صريحة ؛ ولذلك نجد الغرب قد توقف الآن عن مسألة الاستشراق ، وما بقى من الاستشراق فهذا هو القديم . وكان المستشرق من هؤلاء يؤلف كتاباً ؛ ساعة يقرأه المسلم قد يقول : إنه رجل يعمل على خدمة العلم وعلى خدمة الثقافة ، وخدمة سنة رسول الله . وقد يكتفى هذا المؤلف بأن يدس فى الكتاب الواحد فكرة واحدة بعد أن يجعل القارىء يثق فيه .

وعندما علموا أننا فطنا لهذا دخلوا علينا بالمستغربين . وهم أناس منا ذهبوا إلى الغرب فأخذوا الداءات من هناك وجاءوا فبثوها فى مناهج تعليمنا ، وفى برامجنا ، وفى وسائل الإعلام ، وفى الصحافة ، والواحد من هؤلاء المستغربين يفعل ذلك وهو مسلم ، فيكون محل ثقة ، ووجد الغرب أن أيسر طريق لهم الآن أن يدخلوا إلينا عن طريق بعض المسلمين الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؛ لأن الإنسان سيكون مطمئناً إلى أن هؤلاء مسلمون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا : أن خصومك الظاهرين أهون عليك من خصومك المنسوبين إلى دينك ؛ لأن هؤلاء يدخلون عليك بالثقة الأولى ، ثقة انتسابهم للإسلام ؛ ولذلك يوضح لنا ربنا هذا الأمر لأنه قد يتعب ويصيب المؤمنين بالعنت لذلك يقول : « أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم يعيشون على هذه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

فقد يكون عندكم علم بالأعداء فيقال : أنتم عالمون بأعدائكم . لكن الله أعلم بالأعداء جميعا؛ لأنه قد تكون لك عداوة بينك وبين نفسك ، أو عداوة من زوجتك ، أو عداوة من أولادك أو كلٍ هذه العدوات جميعها أو بعضها . وهؤلاء في ظاهر الأمر لا يمكن للإنسان أن يتبينَ عداوتهم جميعا ، لكن الله أعلم بهم وبما يخفون ؛ لذلك يقول : « والله أعلم بأعدائكم » .

وجاء بها بعد قوله : « ويريدون أن تضلوا السبيل » أي مخافة أن نقول : إن هؤلاء أهل كتاب أو مسلمون مثلنا وكذا وكذا . ومادام الله هو الأعلم بالأعداء . فهو لن يخدعنا ولن يغشنا ، فيجب أن نتنبه إلى ما يقوله الحق من أنهم أعداؤنا ، ويقول بعدها : «وكفى بالله وليًا» وحين يقول هذا، فالقول يعني أنك لا تريد وليّاً بعد ذلك، كما يقولون : كفاني فلانٌ ؛ أي أنك قد تحتاج إلى هذا وهذا ثم تقول : لكنّ فلاناً عرفته فكفاني عن كل ذلك ، أي لا يحوجني إلى أحد سواه ؛ لأنني أجد عنده الكفاية التي تكفيني في كل حركة حياتي .

«وكفى بالله وليّاً » . . نعم كفى به وليّاً لأن غيره من البشر إنما يملكون الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الأسباب ، فيملك ما هو فوق الأسباب . ولذلك يقول مطمئناً لنا :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(سورة الطلاق)

و« الولي » دائماً هو من يليك مباشرة أي أنه قريب منك . « وكفى بالله نصيرا » إذن فهناك قريب ، وهناك أيضا نصير ، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا ينصرك، لكن الله وليّ ونصير ، فمادامت المسألة مسألة معركة « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً » ، كأن الحق ينبهنا : إياكم أن تقولوا إننا نلتمس